من أعلام التراث العربي:

أبو حيان التوحيدي

«بمناسبة ذكراه الألفية»

عبداللطيف الأرناؤوط

حق العرب أن يعتزوا بمفكريهم الموسوعيين الذين أعلوا شأن العقل في كتاباتهم ، ومنهم أبو بحر الجاحظ وأبو حيان التوحيدي . ويعدّ الأخير رائداً من رواد الفكر والفلسفة والأدب في القرن الرابع الهجري ، تأثر بكتابات الجاحظ وبمنهجه في البحث الذي يقوم على الملاحظة والتساؤل والشك للوصول الى اليقين ، وان كان الجاحظ ، على حد تعبير أحمد أمين « أكثر تشبعاً ، وأكثر انطلاقاً ». أما التوحيدي فكان « أجزل لفظاً وأوسع معرفة » بحكم أنه عاش في القرن الرابع الهجري وهو عصر نضجت فيه العلوم ، في حين عاش الجاحظ في القرن الثاني للهجرة يوم كان العلم في أول نشأته .

ولد أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي في بغداد سنة ٣١٠ هـ . فقد ورد في كتاب (المقابسات) اعتراف له ينص على أنه ألّف هذا الكتاب في سنة ٣٦٠ هـ بعد أن جاوز العقد الخامس من عمره ، وقيل : سُمّي « التوحيدي» نسبة لأحد أجداده ، الذي كان يبيع نوعاً من التمر يسمى « التوحيد » ، كما قيل ، لأنه كان من القائلين بالتوحيد بالله .

قال عنه ياقوت الحموي الرومي في ترجمته الواردة في معجم الأدباء : « إن أحداً لم يذكره في كتاب ولا دمجه في خطاب » . ويميل ياقوت إلى الظن بأنه فارسي الأصل ، قدم بغداد وأقام بها مدة ، ثم مضى إلى الريّ . غير أن مؤلفات أبي حيان توحي بأنه لم يكن يعرف الفارسية . أما القائلون بعروبته

فانهم يؤكدون ذلك استنـاداً إلى ردّه على الشعوبية ، وأنه لو كان فارسياً لاعتز بنسبه في مؤلفاته .

كان التوحيدي قليـل الحديث عن نسبه وأسرتـه في مؤلفاتـه ، باستثناء إشارة عابرة إلى والدته إذ قال فيها :« وأولها حديث الوالدة : فاني لا أكاد أنساها ، ولا أذهـل من شأنهـا وشأني معها . هذا على بعد عهدي بها وامتداد الزمان بيني وبينها . لأنها صارت إلى جوار الله وأنا غلام » .

ويتحدث عن فضل الأم وسمو دورها عن الأب فيقـول : « الأم شأنهـا في الحس أعظم ، وتدبيرها في المباشرة أظهر . وشفقتها بسبب ضعف قوتها أكثر . والأب هو الفاعل الحسّي أيضاً ، ولكن لا مباشرة لـه متصلـة ، ولا ولاية لـه متمادية ، وإنما هو أول فقـط ، والأم حاملـة واضعـة ، وفاطمة ومرضعة ، وحاضنة ومربية ، فالكلفة عليها أغلظ ، وحسّها للولد آنف ، وهو بها أشغف » وهو ينسب هذا الحديث إلى أحد أساتذته ، غير أن ذكره له في كتبه يعكس تعلّق التوحيدي بأمه ، وبره بأهله .

أخذ التوحيدي من كل علم بطرف ، فدرس الفقـه والحديث ، واهتم بعلـم الكلام والتوحيـد ، ومسائل المنطق والفلسفة . وبحث في اللغـة والنحـو ، وألّف في التصوف .

يقول عنه أحمد أمـين : « كـان شخصيـة فلسفيـة طُلعَـة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها ، وقد ساعده عصره على اتجاهه الموسوعي ، مثلما ساعده شيوخه من العلماء الموسوعيين » . فقـد تتلمذ على الفيلسوف المنطقي أبي سليمان محمد بن طاهر الجستاني ، وسجل معظم ما دار في حلقات دروسه ، ولا سيما في كتابه « المقابسات » ، كما تتلمذ على الفيلسوف أبي زكريا يحيى ابن عدي ، رئيس أهل المنطق في زمانه ، ووصفه بقولـه : « كـان شيخاً لـين العريكة فروقـة[1] ، مشوّه الترجمة ، رديء العبارة ، ولكنـه كان متأنياً في تخريج « المسائـل المختلفة » . ودرس النحو على أبي سعيد السيرافي ، من كبار النحاة والمتكلمين في عصره . وكان مـن أساتذته الشيخ علي بن عيسى الرّماني ،

---

١ ـ شديد الفزع .

المجلّي في النحو والكلام ، ودرس التوحيدي الشريعة وأصول الفقه الشافعي على المرورذي وأعجب وتأثر بولعه في تحديد الألفاظ وتعريف المفاهيم ، كما درس الفلسفة على يد محمد بن طاهر المنطقي ·

لم تدم إقامة التوحيدي في بغداد طويلاً ، ففي عام ٣٥٢ هـ نفاه الوزير المهلبي منها ، لتطرفه في آرائه التي أوردها في مصنفات له مفقودة منها « رسالة الحجيج » ·

اتصل التوحيدي بعد ذلك بابن العميد ، الوزير الأديب ، ثم تحول إلى الصاحب بن عباد ، لكنه لم ينل منه أي شيء ، لرفضه أن يكون ناسخاً لكتبه ، وقد انتقم لنفسه منهما ، فألّف في ذمهما رسالة عنوانها «مثالب الوزيرين». كما هجاهما في كتابه «الامتاع والمؤانسة» · وبالغ في الطعن بهما ، وإن كان يعترف أحياناً بفضل ابن العميد ·

غادر التوحيدي الصاحب بن عباد سنة ٣٧٠ هـ ، بعد ثلاث سنوات من ملازمته ، ورجع إلى بغداد خالي الوفاض ، فاتصل بابن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهي ، وتوثقت بينهما أواصر المودة ، فنسخ له كتاب الحيوان للجاحظ ، وألف له رسالة « الصداقة والصديق » وأهدى اليه كتابه « الامتاع والمؤانسة » · غير أن ابن سعدان لم يبق في الوزارة طويلاً ، فقد كاد له خصمه عبد العزيز بن يوسف ، لدى صمصام الدولة ، فسجن هو وأصحابه ثم أمر صمصام الدولة بقتله ·

خشي التوحيدي من الملاحقة ، فهرب الى شيراز ، وفيها تردد الى المتصوفة ،وعاش معهم حياة شظف ومذلة ، فقال فيها : « لقدغدا شبابي هرماً من الفقر ، والقبر عندي خير من الفقر » · وزاد من تشاؤمه ما لاحظهمن انصراف الناس عنه ، فاحرق ما لديه من مصنفات ، ضناً بها على مَنْ لا يعرف قدرهابعد موته ، وحين لامه صديقه القاضي أبو سهل علي بن محمد ، على هذا الصنيع ، اعتذر عن فعلته باعراض أهل بغداد عنه ، مع أنه عاش بينهم عشرين عاماً · وذكر في مقدمةرسالته « الصداقة والصديق » أنه كان منبوذاً من الجميع في تلك العاصمة ، فهو« لا يعرف له ولداً نجيباً ، أو صديقاً حبيباً ، أو صاحباً قريباً ، أو تابعاً أديباً ، أو رئيسامنيباً » وأضاف الى ذلك قوله : « وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فما صحّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من

انسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم ،بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة ، الى أكل الخضر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الريـاء بالسمعة والنفاق ٠٠ » ٠

ويشير التوحيدي الى أنه اقتـدى بالأئمة في ذلك ، فأبو عمرو بن العـلاء دفن كتبه في الأرض ، فلم يوجد لها أثر ٠ وأبو سليمـان الداراني جمع كتبـه في تنور وسجرها بالنار ٠ وسفيان الثوري مزّق ألف جـزء من كتبـه وطيّرهـا بالريـح ٠ !!

ويذهب الدكتور زكريا ابراهيم الى أن احراق التوحيدي كتبه ، قد يعود الى نزعة صوفيـة لديه ، ظهـرت في آخـر حياته ٠ وتبين له من خلالها أن « الكـل باطل وقبض الريـح ، ومن الحـرام أن يبقى المعقول بعد فناء العاقل » ٠

وذكر صاحب كتاب « وفيات الأعيان » أن التوحيدي عُمّر طويلا ، اذ توفي في عام ٤١٤ هـ عن مائة وأربعة أعوام ،ويذهب مؤلف كتاب « شدّ الازار عـن حط الأوزار » أن قبره في شيراز ٠

☆ ☆ ☆

شـخصيته :

فطر التوحيـدي على الصراحة والشجاعة في حياته ، وقـد جرّت عليـه صراحته نفور الكبراء الذين اتصل بهم منه ٠ لقد كان يكره المجاملة ، فرفض أن يعمل نسّاخاً لكتب ابن العميد ، فأثـار حنقه ٠ وقد وصفه صديقه أبو الوفـاء بقوله : « انه عِزّ ، لا هيئة له في لقاء الكبراء ، ومجاورة الوزراء ٠ وقد أوتي طبعاً عصبياً ، دفعه الى الثورة السريعة ،والبعد عن التروّي ٠ فكثر نقده لأولياء نعمته ، حتى لأصدقائه ٠ مع ابـاء في نفسه ، جعله يشترط على ابن سعدان أن يأذن له بمخاطبته بالكاف والتاء دون تعظيـم ٠ ولم يكـن يتهيّب الـوزراء ولا تصاغر في مجالسهم ، ولا كان حريصاً على الظفر برضاهم ٠ وكـانت ردود فعله ، على الاحباط الذي تعرّض لـه بسبب طبعـه ، الشـكوى المتواصلة ، وذمّ الناس ، والشعور بالحيف والاغتراب عن المجتمع ٠ فهو يشبه الدنيا بالدار التي امتلأت بالذئاب ، معبّراً بذلك عن اخفاقه في تحقيق ما كان يطمح اليـه ٠

وكان يتصف بنزعة الى الشك ، تجعله دائب التساؤل عما حوله • كان ينقصه التوازن النفسي ، الذي يحقق له سلوكاً ناجحاً وتكيفاً مع وسطه • ولم يكن يملك الارادة التي تعينه على ضبط النفس والكف الارادي ، حتى في أبسط المواقف •

رُوي أنه حضر مرة مائدة الصاحب بن عباد ، فقدمت مُضيرة ، فقال له الصاحب : يا أبا حيان ، انها تضر بالمشايخ •• !! فأجاب : ان رأى الصاحب أن يدع التطبيب على طعامه ، فَعَل .. »وهذه الاجابة كما يقول الدكتور زكريا ابراهيم : لا تخلو من تهور وسوء تصرف ، ان من سمات العصبيين سرعة الغضب والرضا ، والتهور والعنف ،والتصرف الجامح ، والسلوك الأخرق ، وصعوبة التكيف ، والوساوس والشك ،والمبالغة في وصف ردود الفعل • وهذا واضح في سلوك أبي حيان ، مثلما يبدو أيضاً ميله الى المزج بين الجد والهزل ، وسرعة البديهة وقلة التمسك بالمبادىء أو الثبات على العهد في الودّ • الواضح أن أبا حيان تقلّب كثيراً في علاقاته وصداقاته ، واتهم حتى في تدينه •

آثـــاره :

☆ ☆ ☆

ذكر مؤلف /معجم الأدباء/ كشفاً بأسماء مؤلفاته ، وهي ثمانية عشر كتاباً ، بالاضافة الى كتب أخرى أشار اليها ياقوت منها كتاب : النوادر ، والكلام في الكلام ، ويمكن أن يضاف اليها كتب أخرى طبعت منها « الهوامل والشوامل » و رسالة في العلوم » و« رسالة الحياة » و « رسالة في علم الكتابة » و « رسالة الامامة » •

١ ــ وأول ما نشر من كتبه رسالتاه في « **الصداقة والصديق** » و « **رسالة في العلوم** » نشرهما أحمد فارس الشدياق ، وقد تحدث في الأولى عما كُتب عن الصداقة والصديق ،شعراً ونثراً ، في آداب الأمم المختلفة • والتوحيدي ينكر في الأولى مفهوم الصداقة الأرسطاطالي ، كما ينكر وجود الصديق ، أو ما يشبه الصديق • وهو يفرق بين الصداقة والعلاقة والهوى • فالصداقة من شيم ذوي الشيب ، والعلاقة من شيم الشبان •

وأما رسالته في العلوم فهي رسالة قصيرة ، ردّ فيها على مَنْ يزعم أن لا صلة للمنطق بالفقه ، ولا صلة للفلسفة بالدين • وحدد فيها أنواع العلوم ، بأسلوب جزل ، كما حدد معالم كل علم ، وما يفرّقه عن العلوم الأخرى •

٢ ـ **كتاب المقابسات** : نشر عام ١٩٢٩ ، وتولى تحقيقه الباحث حسن السندوبي ، وهو يحوي محاورات بين العلماء عددها مئة وست ، تدور حول موضوعات فلسفية في قالب أدبي ، وتتناول تعاريف ومصطلحات فلسفية : كالعلّة والمعلول ، المكان والزمان ، التوحيد والتنزيه ، النفس والعقل ، وينقل فيها آراء أساتذته ، ويغنيها برأيه • وقد اهتم فيها بتجديد المصطلحات ، والتمييز بين المترادفات ، محاولا أن يقيم جسوراً بين الفكر واللغة •

٣ ـ **كتاب الامتاع والمؤانسة** : حققه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين ، ونشر في ثلاثة أجزاء ، صدرت ما بين عامي ١٩٣٩/١٩٤٤ • وهو أبرز كتب التوحيدي ، وقدّم له أحمد أمين بمقدمة وافية ، وهو يتضمن مسامرات تمت في مجالس الوزير أبي عبدالله العارض في سبع وثلاثين ليلة ، طرح فيها الوزير على التوحيدي أسئلة مختلفة ، فأجاب عنها ودوّنها في كتابه •

ويرى أحمد أمين أن هذا الوزير هو ابن سعدان نفسه • والكتاب يكشف عن مؤلفي رسائل اخوان الصفا ، ويبدو فيه تعصب التوحيدي للتراث العربي من خلال محاورة ذكرها ، جرت بين السيرافي ومتى بن يونس حول المفاضلة بين النحو والمنطق ، ويعكس الحالة الثقافية في العراق في العصر البويهي ، وهو كتاب ممتع قيل فيه « ابتدأ أبوحيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدّثاً ، وختمه سائلا ملحفاً » •

والكتاب يجمع بين الأدب والفلسفة ، ومنهجه أقرب إلى منهج كتاب ألف ليلة وليلة من حيث تقسيمه الى ليالٍ ، ولكن ليست لهواً وطرباً ، وإنما هي فكر وأدب وفن •

٤ ـ **كتاب الاشارات الالهية والأنفاس الروحانية** : حققه الدكتور عبدالرحمن بدوي ، وقد كتبه التوحيدي في مرحلة متأخرة بعد أن بلغ السبعين من العمر ،

كما يشير إلى ذلك بقوله : « أنا نطقت بهذه الألغاز بعد سبعين سنة، وقد تحطمت قناتي ، وتكشفت شواتي ، [جلدة رأسي] ، وتفلّلت صَغاتي ، واضمحلت صفاتي ، وبليت لحمتي وسداتي ، وفقدت شهواتي ولذاتي، ومنيت بموت أحبتي ولداتي .. » . وأظهر فيه أبو حيان التصوف ، وإن لم يكن يُعدّ في عداد الصوفية ، ويضم كتابه حسب تعبير الدكتور بدوي « دعوات وعظات » ، وإشارات عارضة للمصطلحات الصوفية، وهو يعبر عن نفس ألفت الايمان ، بعد أن أخفقت في الحياة ، وعجز طموحها العقلي عن حلّ مشكلات الفكر ، لاسيما أن سعيها وراء المنطق لم يجن لها إلا نفور الناس، وفيه بدا التوحيدي مؤمناً، يردد كلمات الأنبياء والرسل ، ويتحول من اعتماد العقل إلى الحدس والاشراق . ولا يخلو الكتاب من نظرات عميقة في مسائل صوفية ، كالأحوال والمقامات ، والمكاسب والمراتب ، والوجد والتواجد والوجود ، والمشاهدة والمعاينة » .

٥ ـ كتاب الهوامل والشوامل : نشره عام ١٩٥١ الأستاذان أحمد أمين وأحمد صقر . وهو مجموعة أسئلة طرحها أبو حيان وشبهها بالهوامل أي الابل السائمة ، وأجاب عنها صديقه «مسكويه» بأجوبة سماها أبو حيان « الشوامل » لأنها ضبطت أجوبة أسئلته . وتتميز بعض مسائل الكتاب بالعمق والدقة ، ونفاذ فكر التوحيدي باحثاً مستطلعاً يهتم بكل شيء ، فهو يثير مشكلات فلسفية عويصة ، طرح بعضها من قبل، مثل صفات الله ، والتوحيد ، والتشبيه، والجبر والاختيار ، والموت والمعاد .. والعلم والعمل ، ومشكلة الألم ، والرؤى والأحلام . ويفرق بين المترادفات اللغوية في المعنى ، كالفرق بين الفرح والحزن ، والمزاح والهزل ، والصمت والسكوت .

٦ ـ رسائل التوحيدي : نشر الدكتور ابراهيم الكيلاني عام ١٩٥١ ثلاث رسائل للتوحيدي هي :

١ ـ رسالة السقيفة .
٢ ـ رسالة في علم الكتابة .
٣ ـ رسالة الحياة .

أما الأولى فثمة رأي يذهب إلى أنه ألفها بنفسه ونسبها إلى المرورذي ، وفيها أقوال منسوبة إلى الخلفاء الراشدين ، لا تتفق مع المتداول من رسائلهم .

وأما رسالة علم الكتابة ·· فقد تحدث فيها عن الخطوط وأنواعها ، حديث عالم خبير ، وهو الذي مارس النسخ زمناً ، والرسالة الثالثة بحث فلسفي في الحياة والموت والمعاش والمعاد ·

٧ ـ كتاب البصائر والذخائر : نشره أحمد أمين وأحمد صقر عام ١٩٥٣ ويتضمن ألواناً من المعرفة ، ردّها التوحيدي إلى مصادرها التي اقتبسها منها · وهي يحاكي الجاحظ في تأليفه من حيث نزعته الموسوعية وميله إلى الاستطراد ومزج الجد والهزل ·

٨ ـ كتاب مثالب الوزيرين : نشره الدكتور ابراهيم الكيلاني عام ١٩٦١ وقد سبقت الاشارة إليه ، وهو يرى فيه أن الكشف عن أخلاق الناس يعيننا على مدح المحسن وذم المسيء · ويعترف أن تقويم الناس بأسلوب موضوعي أمر عسير « والناس بين راض عنك ، فهو يمنحك أكثر مما لك ، وساخط عليك ، فهو ينقصك من حقك · » وإن كان يعترف بأنه حاول أن يقترب من الصدق في أحكامه على الوزيرين ، فيقول : « ولست أدّعي على ابن عباد مالا شاهد لي فيه ، ولا ناصر لي عليه · ولا أذكر ابن العميد بما لا بيّنة لي معه ، ولا برهان لدعواي عنده · » وقد أفرط في ذمّ الوزيرين ، وكان حنقه على الصاحب أشدّ ، وهو يندد ببخلهما ، وصفاقتهما ، وسخفهما ، وقلّة تدينهما ، وغرورهما الكاذب ··

٩ ـ وللتوحيدي كتب لم تطبع ، منها ما هو مخطوط ، ومنها ما هو مفقود · فمن الكتب المخطوطة : « **كتاب الحج العقلي إذا ضاق القضاء عن الحج الشرعي** » · وقد أشار إليه ياقوت الحموي في معجم الأدباء · وذهب المستشرق مرجليوث إلى أن هذا الكتاب ، كان السبب في عدّه من الزنادقة ·

ومن الكتب المفقودة له : « المحاضرات والمناظرات » و « كتاب الزلفى » و « تقريظ الجاحظ » ، وفيه أبدى إعجابه به بأستاذه الجاحظ ، الذي وصفه نقلاً عن الياقوت الحموي بقوله : « خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، وقدوة المتقدمين والمتأخرين · إن تكلم حكى سحبان في البلاغة ، وإن ناظر نازع النظّام في الجدال ، وإن جد خرج في مسك عامر بن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد · حبيب القلوب ، ومزاج الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب · » ·

حاول أبو حيان أن يقلّد الجاحظ في نزعته الموسوعية ، ومنهجه في التأليف . وتأثر في كتابه « الامتاع والمؤانسة » بكتاب « البخلاء » . فصاغ التوحيدي كتابه هذا على صورة مسامرات وحوارات . وأولع مثله بالتقابل والتضاد ، وتقسيم الجملة إلى فواصل مترادفة أو موزونة . مثال ذلك قوله : « ... لما رأيت شبابي هرماً بالفقر ، وفقري غنياً بالقناعة ، وقناعتي عجزاً عن التحصيل ، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه ، وموضعي منه ، فرأيت طرفه عني نابياً ، وعنانه عن رضاي مثنياً .. » .

مكانته الأدبية :

أبو حيان التوحيدي كاتب مبدع ، امتاز أسلوبه برسم بعض الشخصيات البارزة في عصره ، كتب ترجمته في دائرة المعارف الاسلامية ، وأشاد بعبقريته في هذا المجال « جرونبيباوم » في الفصل الذي عقده عن الأدب العربي في كتابه فصل « حضارة الاسلام » . لقد نحا التوحيدي منحى المحلّل النفسي ، وعدّه الدكتور زكريا ابراهيم فيلسوف التوحيد ، وإن كان كاتب ترجمته في الموسوعة الاسلامية يدعي أنه لم يكن له في العقائد أي مذهب أصيل ، فالتوحيدي سعى إلى التوفيق بين الآراء الفلسفية التي سبقته ، دون أن يسترسل في الجهر بارائه في التوحيد ، مخافة أن يُرمى بالزندقة ، إذ كانت حركة الفكر تصطدم دائما بالمسألة الدينية ، ولذلك نراه يقول في « المقابسات » (.. وكان ذيل الكلام أطول من هذا ، فشمرته خوفاً من جناية اللسان في الحماية ، ونزوة القلم في الكتابة ، وايثاراً للحيطة فيما يجب على الانسان اذا نشر حديثاً ما أو روى خبراً ، وأثار دفيناً » . ومع ذلك لم يسلم أبوحيان من التهمة ، فزعم بعض المؤرخين أنه حاكى / الحلاج / في القول بوحدة الوجود ، مما سهل اتهامه بالزندقة ، اعتماداً على قوله في مناجاة له : [اللهم طهّر قلوبنا من ضروب الفساد ، وحبّب الى أنفسنا طرائق الرشاد ، وكن لنا دليلاً ، وبنجاتنا كفيلاً ، بمنّك وجودك اللذين ما خلا منهما شيء من خلقك العلوي والسفلي ، ولا فاتنا شيء من صنعك الجلي والخفي ، يا من الكل به واحد ، وهو في الكل موجود] .

ونثر التوحيدي شديد التعبير عن شخصية صاحبه ، الذي امتاز برهافة الحس ، ورقة العاطفة ، وسرعة التأثر، وحرارة التعبير • وهو في فكره لا يستطيع أن يفصل ذاته عن الموضوع المعالج ، بل إن فكره يتلوّن بتطور مراحل حياته ، فقد بدأ أديباً ، ثم برز متكلماً ، يطرح مسائل بأسلوب أرسطو في الحوار والجدل، وتحوّل في آخر عمره إلى الشك بقدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة ، فرأى في التصوف ضالته لايمانه بقصور العقل عن معرفة كنه الذات الالهية فقال: « هيهات !! هيهات! اشتد اللغط، وكثر الغلط ، ورجع كل إلى الشطط ، وفات الفهم والفاهم ، والوهم والواهم ، وبقي مع الخلق علم مختلف فيه، وجهل مصطلح عليه » •

على أن تصوفه كان ثمرة إحساس شديد بتغربه عن مجتمعه وناسه ، وعجزه عن تحقيق التواصل والتكيف مع الناس. فقد « أنس بالوحدة ، وقنع بالوحشة ، واعتاد الصمت ، ولزم الحيرة ، واحتمل الأذى ، ويئس من جميع الخلق » حسب تعبير ياقوت الرومي في وصفه ، وأصبحت غربته « غربة مَنْ لا سبيل له إلى الأوطان ، ولا طاقة به على الاستيطان » كما يقول عن نفسه • ولذلك أكثر من الحديث عن الموت والانتحار في كتبه، ولولا إيمانه الديني ، وخوفه من العقاب الالهي ، لما تردد في إنهاء حياته • غير أنه تغلّب على دهره بالشكوى حيناً ، والفكاهة المرّة حيناً ، أو المتطرفة المقذعة حيناً ، تعبيراً عن تمرده على المألوف•

وللتوحيدي في البلاغة آراء متميزة ، منها ضرورة البلاغة للأديب ، وإن كان محتاجاً قبل كل شيء إلى الموهبة ، فقال عن الأديب : إنه إلى سلاسة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ » •

ويرى أن فن البلاغة « مركب من اللفظ اللغوي ، والمصوغ الطباعي ، والتأليف الصناعي ، والاستعمال الاصطلاحي » • كما يُلزم الأديب المشتغل بفن الأدب أن يكون ذا نشاط ذهني ، واستدلال عقلي ، وقدرة على التمييز، وطاقة على ممارسة البرهان ••

والبلاغة عند التوحيدي ليست زخرفاً وبريقاً ، إنها تنبع من العقل، وتستمد قيمتها من طلب الحقائق ، لا من التزويق والتلاعب والخداع .

وهو في دراسته للبيان يقتفي أثر أستاذه الجاحظ محاولاً أن يدلي بدلوه في هذا الميدان الفسيح ، فيطالب الأديب بالتروي في الانتاج ، لأن الناس يحكمون على نتاجه ، لا على سرعته في إنجاز هذا النتاج .

وللتوحيدي آراء في تفضيل النثر على الشعر ، كما له شروط في الأسلوب الجميل ضمن اتحاد المبنى والمعنى ، وتناسب الشكل والموضوع .

ولئن كان أبو حيان التوحيدي قد ظلمه عصره ، فان احياء تراثه يعدّ بمثابة تعويض واعتراف بقيمة أفكاره ، فان طباعة آثاره ، واهتمام الباحثين في أدبه ، الذين تناولوا كتبه وشخصيته دراسة وتحقيقاً ، لدليل على أهمية عطائه واسهامه المتميز في الفكر العربي الاسلامي بخاصة ، والفكر الانساني بعامة .

دمشق : عبد اللطيف أرناؤوط